الفصل الثالث

الإشـــارات القـرآنية

أولا : تعريف الإشارات القرآنية:

الإشارة هى لغة تعيين الشيء باليد ونحوها، والإشارة التلويح بشيء يفهم منه المراد. وأشار عليه بالرأى وأشار يشير إذا ما وجه الرأى. وفى القرآن الكريم:

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴾ (مريم) - أى أومأت إليه. فعندما نقول إشارات فإننا نقصد بذلك أن ما نقوله مجرد تنبيهات أو إيماءات أو تلميحات أو توجيهات أو إرشادات حتى لو كان ما يشار إليه حقائق أو دراسات أو نظريات- كالإرشادات الحسية باليد أو بالنظرة أو بالوجه - فإن الإشارات اللغوية توجه النظر إلى موضوعات كونية كالإنسان والمخلوقات والظواهر الكونية دون تفصيل أو تحليل، وعندما نقول الإشارات القرآنية فإن المقصود بذلك الآيات القرآنية التى تشير أو تلمح أو توجه أو تنبه إلى موضوع من الموضوعات دون أن تتناوله صراحة بالتفصيل والتأصيل من جميع جوانبه وجزئياته.

وإذا كانت الآيات الكونية قد اكتفت بإشارات فإن هذا يعنى أنها دليل للإنسان وليست منافسا للعقل البشرى فى البحث العلمى الذى يجريه ليشاهد ويجرب ويحلل ويستقرىء، فتقرر له النظريات والحقائق التفاصيل والجزئيات. ولتقريب صورة الإشارات بمثل دنيوى فإننا نضرب مثلا بما نلاحظه فى أساتذة الجامعة الذين يشرفون على رسائل الدكتوراه والماجستير والبحوث لطلاب الدراسات العليا، فإنه أثناء عملية البحث العلمى التى يجريها الطالب يلجأ إلى أستاذه يسأله عن العقبات والإشكالات التى تعترض طريق بحثه، فبماذا يجيبه الأستاذ؟ غالبا ما يكتفى بإجابات موجزة مركزة مختصرة.. مجرد إشارات: ارجع إلى كتاب كذا، أعد التجربة مرة أخرى. أكثر من التأمل والمشاهدة. الوجه الصحيح للمسألة هو كذا. فهو يكتفى بإشارات موجزة مركزة مختصرة تاركا للطالب الرجوع إلى الكتب والمؤلفات لمزيد من القراءة أو إلى المعمل لإجراء المزيد من التجارب أو للطبيعة للمزيد من المشاهدة والتأمل والتفكير.. وللتحقق من التفاصيل والجزئيات.

ولقد حث الله عباده على النظر والتدبر والدراسة لمعرفة الظواهر الكونية لندرك ما فى كونه من إعجاز وما فى معانى مخلوقاته من إبداع، كما فى قوله تعالى:

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (يونس: ١٠١)

وللقرآن الكريم أسلوبه الحكيم فى الدلالة على آيات الله فى الكون، فالحديث العلمى الكونى فى القرآن يكاد لا يتوقف، وفى أسلوب رائع وإعجاز علمى بالغ يوقظ عقل الإنسان فى رفق ويسر ويخاطب كل البشر على اختلاف عقولهم وزمانهم، فالهداية التى جاء القرآن من أجلها تقتضى ألا يخاطب القرآن الناس عن الكون بما ينكرون، فيقوم ذلك حجابا بينهم وبين قبول دعوته، وحاملا على تكذيبه، وهى أيضا تقتضى ألا يوافق الناس على باطل معتقداتهم الكونية فى عصر نزول الوحى به فيقوم ذلك حائلا دون قبول دعوته فى عصور العلم المتقدمة. وتجنب هذين العائقين عن قبول هداية القرآن فى الماضى والمستقبل هو من روائع إعجاز أسلوبه.. ويحتوى القرآن، على أكثر من ثمانمائة آية كونية فيها حقائق علمية غاية فى الأصالة والموضوعية.

ولقد نزلت هذه الآيات العلمية حتى لا يكون القرآن قاصرا على الإعجاز اللغوى والبيانى الذى يتحدى فصحاء العرب فقط، ولكن الإعجاز العلمى للقرآن ضرورى وهام، لأن الإنسانية كلها بجميع شعوبها على اختلاف لغاتهم مخاطبة بالقرآن ومطالبة بالتسليم له أنه كلام الله.. فهو حجة الله لكل من أبى الإسلام كما فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (فصلت)

وكما بينا من قبل – فإن البشرية على موعد دائم مع الله لكشف آياته فى الكون (الآفاق والأنفس)، وفى كتابه أمام الأبصار لتقوم الحجة وتظهر المعجزة.

إنه الوحى فى القرآن والسنة، يفيض بأوصاف الكائنات، فاللقاء حتمى بين الكون والقرآن والإنسان، ولهذا ستظهر المعجزة بدون شك، وكذا الأحاديث النبوية المتعلقة بالآفاق والأنفس..

وقد تأسست هيئة الإعجاز العلمى للقرآن والسنة برابطة العالم الإسلامى بمكة، وجمعية الإعجاز العلمى للقرآن والسنة بجمهورية مصر العربية التى تشرفت بالاشتراك فى تأسيسها ورئاستها.. وبدأ عدد من علماء المسلمين يهتمون بهذا الجانب، ووصلت أنباء الإعجاز القرآنى

للخارج وبدأ عدد من علماء الكون من غير المسلمين يتجهون إلى نفس الميدان فمنهم من شهد للقرآن مثل البروفوسير الدكتور موريس بوكاى فى كتابه الشهير «التوراة والإنجيل والقرآن فى ضوء المعارف العلمية الحديثة» والذى أثبت فيه تحريف التوراة والأناجيل وصدامها جميعا مع العلم، بينما أوضح سلامة القرآن من أى تحريف واتفاقه مع العلم الثابت القاطع، ولم يحدث تعارض بين العلم والقرآن إلا إذا ضل العلم طريقه أو أخطأ المفسرون فى فهم الآية الكونية.

والمفسرون بشر يؤخذ من كلامهم ويرد، لقد جاء فى بعض التفاسير القديمة للآيات الكونية القرآنية آراء غير صحيحة وتأويلات خاطئة لا تقبلها العقول السليمة ولابد من معارضتها ودحضها بإعادة النظر فى تفسيرها على وجهها الصحيح لأن السكوت على ذلك نوع من الجمود والتخلف وحجر على العقول وحجب لأهم مميزات القرآن وهى خلوده وتجدد إعجازه.

ويجب التمييز بين التفسير العلمى والإعجاز العلمى كما يقول الشيخ عبد المجيد الزندانى.

فالتفسير العلمى: هو انتفاع المفسر بما ظهر فى عصره من معلومات كونية فى تفسير الآية أو شرح الحديث.

وقد يسأل البعض: لماذا المعنى الإشارى فى معظم الآيات الكونية التى نزلت فى القرآن بالإشارة وليس بصريح العبارة مما أدى إلى تضارب التفسيرات؟ والرد على هذا بديهى، فالمعنى الصريح فى القرآن فى العلوم الكونية يسد باب البحث والاجتهاد أمام الإنسان لأن كلام الله مطلق، ولتوضيح ذلك نأخذ عبارة ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (النحل) فى سياق آية وسائل الركوب فقد فتحت الباب أمام الإنسان لاختراع ما استجد من طائرات وسفن فضاء والاجتهاد مفتوح حتى قيام الساعة.. ولهذا كان الوحى الإلهى بالإشارات وإلا لما تمكن الإنسان من اكتشاف الجديد إذا كان كل شىء أنزله الله صريحا مفصلا. والله تعالى بعلمه الأزلى أنزل هذه الإشارات العلمية القرآنية للإنسان ليعمل فكره وعقله فى الظواهر الكونية ليستخلص حقائقها ويدرك تفاصيلها وجزئياتها فى الكليات المتخصصة مثل كليات الطب والعلوم والزراعة. وبهذا كانت الإشارات مجملة ليس المراد فيها الإحاطة إذ إنها ليست فى طاقة البشر مهما حصلوا من علم ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ (الإسراء) كما أن القرآن الكريم ليس من شأنه تفاصيل العلوم ولكنه كتاب مفصل على علم هدى ورحمة كما فى قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ (الأعراف: ٥٢).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ (البقرة)

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ (ص)

أما الإعجاز العلمى: فهو الحقيقة الكونية التى يئول إليها معنى الآية أو الحديث ويشاهد الناس مصداقها فى الكون فيستقر عندها التفسير ويعلم بها التأويل كما قال تعالى:

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (الأنعام)

ومن أمثلة الإعجاز العلمى الذى ظهر يقينا فى عصرنا ما ورد فى القرآن الكريم فى علم الأجنة، وذلك بالإشارة إلى تطور الجنين من العلقة والمضغة والعظام.. وكذلك وصول الإنسان للقمر ركوبا طبقا عن طبق، وغير ذلك من إشارات قرآنية رائعة.

ثانيا: خواص الإشارات العلمية فى القرآن الكريم:

تتميز هذه الإشارات بما يلى:

١ - الإشارات القرآنية العلمية تثير قضايا واستدلالات منطقية.

٢ - ورود هذه الإشارات متفرقة بالنسبة لكل موضوع لحكمة إلهية.

٣ - شمولية هذه الإشارات.

٤ - ربط الوحى بالوجود والكون بالإنسان وعالم الشهادة بعالم الغيب.

٥ - عرض الإشارات بأسلوب يشمل أوجه الإعجاز اللغوى والبيانى والبلاغى للقرآن.

ويقول الأستاذ المستشار مدحت حافظ إبراهيم[1] فى هذا البند ما يلى:

فإذا كان الله تعالى فى قرآنه الكريم قد عرض للإشارات العلمية فى صورة قضايا واستدلالات منطقية حتى يستطيع الإنسان أن يخضعها لفكره، ويتقبلها عقله ويتحقق من صحتها، فتكون مرشدا له للإيمان بالله وبالإسلام. فإنه لم يستخدم نفس المنهج الموضوعى الذى يستخدمه العلم الحديث، وكان يستخدمه الكثير من المفسرين للقرآن على مر العصور، وهو المنهج الذى يتناول موضوعا محددا فيتناوله من جميع جوانبه ويوضح ارتباطه بالظواهر والموضوعات الكونية الأخرى.

فالقرآن الكريم لا يجمع الإشارات العلمية الخاصة بكل موضوع من موضوعات الكون فى سورة واحدة من السور أو جزء من سورة، بل يتناول الظاهرة الكونية الواحدة بإشارات متفرقة

---

(١) الإشارات العلمية فى القرآن الكريم - دار المعارف

فى صور متعددة وبأساليب مختلفة توضح زوايا وجوانب عديدة من الموضوع الواحد تنبيها وتذكارا إلى عدم نسيان الخالق وعبادته.

وبالرغم من أن هذا المنهج من القرآن دليل إعجازه وبيان لوحدانية الله وقدرته. إلا أن بعض المستشرقين والمعاندين فى محاولة للنيل من إعجاز وعظمة وقدسية القرآن ينتقد هذا المنهج فيتساءل: لو تخصصت كل سورة أو كل مجموعة من السور فى عرض أفكار أو أحكام أو موضوعات محددة لكان أفضل؟

وهذا التساؤل الخبيث خطأ واضح ومغالطة مكشوفة لأن بناء القرآن العظيم على المنهج الذى أنزله الله عليه هو عين الصواب ومجمع الفصل ومنبع الحكمة.

فالسورة الواحدة تجمع بين مقاصد شتى. فلا يزال القارئ أو السامع يتنقل فيها من معنى إلى معنى ومن صورة إلى صورة لا يمل هذا أو تلك. فيجد قلبه وعقله ألوانا جاذبة من كل ما يستحث الفطرة السليمة لتتجاوب فى صقلها إلى ما يجلو صدأها وأكدارها. فلا أقدر على هذا غير القرآن وبيانه المتجدد الزاخر بكل زاد طيب، منه للقلوب شفاء وللناس رحمة.

وهذا السؤال الخبيث الذى يعاد تكراره على مر العصور يتجاهل كيفية وأسباب نزول القرآن الكريم، وقد أثير فى عصر الرسول ﷺ ولهذا كان الرد عليه قرآنا كريما ليظل حجة باقية على عظمة القرآن الذى أحاط بكل شىء علما.

يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الفرقان)

أى سأل الذين كفروا طعنا فى القرآن؟. لماذا لم ينزل دفعة واحدة؟. ونزل الرد الإلهى:

لقد أنزلناه كذلك مفرقا ليثبت فؤادك بأنسك به وحفظك له ورتلناه وفرقناه آية بعد آية أو قرأناه على لسان جبريل شيئا فشيئا على تؤدة وتمهل.

فقد اختص الله القرآن الكريم من بين سائر الكتب السماوية بإنزاله على محمد ﷺ مفرقا مقسطا، وذلك تثبيتا لقلبه بخلاف الكتب السابقة التى نزلت جملة واحدة. ونزول القرآن مفرقا ومنجما له حكم كثيرة أشارت إليها الآية الكريمة من سورة الفرقان منها.

(أ) تثبيت قلب النبى ﷺ .

(ب) إمكان قراءة القرآن بتمهل وتريث وتؤدة حتى يصل تأثيره إلى القلوب: والمسلم مفروض عليه قراءة القرآن فى كل صلاة، وتفرق المعانى والإشارات يساعد على تأمل العديد من الموضوعات.

(جـ) فهم القرآن وتدبر معانيه والوقوف على أسراره بقدر الطاقة البشرية المختلفة. قال تعالى:

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

(الإسراء)

(د) مجاراة الحوادث وتجددها، والحوادث لم تقع دفعة واحدة فكانت الحكمة تفريق الأحكام الخاصة بها.

ولهذا كان نزول القرآن مفرقا ومنجما على مدى ثلاثة وعشرين عاما، وفى مناسبات عديدة، من أدلة إعجازه وصدوره من الله تعالى خالق الكون والإنسانية.

يقول تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (النساء)

فهذا تقرير لحقيقة وفطرة نشاهدها فى جميع البشر وعلى رأسهم العلماء الذين يقعون فى الخطأ والتناقض والنسيان والنقص، فالكمال المطلق لله وحده وهو سبحانه منزل القرآن خاليا من التناقض.

وإذا كان الثابت أن القرآن نزل فى مناسبات عديدة وفى مراحل مختلفة للرسول ﷺ، وفى ظروف اجتماعية متغيرة فإن هذا يستلزم بالضرورة — إذا كان القرآن من صنع محمد المخلوق البشرى – أن يأتى مختلفاً فى مضامينه أو معانيه أو إشاراته العلمية وأن يقع فى التناقض والخطأ والنقص، ولكن مراجعة إشارات الله العلمية التى أنزلها فى القرآن الكريم نجد أنها جميعا صادقة وصحيحة ومكملة بعضها لبعض ولا تناقض مطلقا بين آيات القرآن عموما مما يؤكد أنها صادرة من لدن حكيم عليم خبير يعلم السر وما يخفى، وأن الرسول الكريم ما هو إلا إنسان مبلغ للرسالة ومبشر ونذير بالحق. كما فى قوله تعالى :

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ (الإسراء)

وقد أظهرت الأيام حكمة عميقة لنزول آيات القرآن الكريم منجمة مفرقة بالنسبة للموضوع الواحد، وهى أنها تترك للإنسان الفرصة أن يستخدم عقله وفكره للدراسة والبحث المتأمل فى كتاب الله، يجمع آياته التى تشير إلى موضوع واحد ليحاول أن يصل إلى علم إنسانى منهجى بالنسبة لهذا الموضوع. وبالفعل فإننا نجد أن ابن القيم أفرد كتابا من مؤلفاته للكلام عن أقسام القرآن سماه «التبيان فى أقسام القرآن» وأبو عبيدة أفرد كتابا للكلام عن إعجاز القرآن، والراغب الأصفهانى أفرد كتابا فى مفردات القرآن وأبو جعفر النحاس أفرد كتابا فى الناسخ

والمنسوخ من القرآن، وأبو الحسن الواحدى أفرد كتابا فى أحكام القرآن.. وغير ذلك ممن قصدوا إلى موضوع خاص فى القرآن يجمعون ما تفرق منه ويفردونه بالدراسة والبحث.

وظهر نتيجة لذلك ما يعرف بالتفسير الموضوعى للقرآن، يتناول جانبًا واحدًا من جوانب القرآن الكريم بالدراسة والبحث. وغالبا ما تكون الدراسة لموضوع معين فتتناوله من كل جوانبه مستوعبة لكل ما فيه من جزئيات ربما لا يتاح تناولها فى التفسير العام، وغالبا ما يجرى هذا اللون من التفسير على أيدى رجال برعوا فى نواحى معينة من العلوم. فهداهم حبهم للدراسة وشغفهم بالبحث إلى أن يتناولوا من موضوعات القرآن ما يتصل بالجانب العلمى الذى برعوا فيه. وسوف أشرح المنهج العلمى لتفسير الآيات الكونية، وكذلك أسلوب تطبيقه فى البند القادم.

والتكرار في القرآن الكريم فى آيات وسور متفرقة تكرار بليغ حيث يتضمن من حيث التكرار نفسه زيادة فى استيعاب موضوع الدعوة وفهمه، وكل تكرار ما دام مقبولاً فى أسلوب عرضه فإنه يزيد الموضوع ثبوتا وقرارا فى النفوس، ويزيد النفوس فهما واستيعابا.. وتكرار المحاورات يتضمن شيئا من التجزىء للمحاورة بحيث لا تعرض كاملة، وإنما يعرض القدر الضرورى لتأخذ النفوس فى تفهمه ثم يضاف إليها جزء آخر أو أجزاء أخرى فى كل إعادة، وهذا التجزىء غير غريب ولا فريد فى القرآن بل هو منهج القرآن نفسه فى نزوله حيث نزل منجما ومجزأ فى طول مدة الرسالة، ومن العلل المشهورة فى ذلك أن تجزئته تعين النفوس على استيعابه وتثبيته جزءا جزءا أكثر مما لو تلى على هذه النفوس مرة واحدة، وكون النفوس أكثر فهما واستيعابا للشيء الكثير أمر لا يحتاج فى وضوحه إلى تدليل.

فالقرآن الكريم يوجه القلوب والأنظار توجيها مكررا مؤكدا إلى هذا الكتاب المفتوح الذى لا تفتأ صفحاته تقلب فتتبدى فى صفحة منه آية موحية تستجيش الفطرة السليمة إحساسا بالحق المستقر فى صفحات هذا الكتاب، وفى تصميم هذا البناء القرآنى، ورغبة فى الاستجابة لخالق هذا الكون الذى أنزل القرآن وخلق السموات والأرض بالحق. مع الحب له سبحانه والخشية منه فى ذات الأوان.

وأولو الألباب وأولو الإدراك الصحيح يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية ولا يقيمون الحواجز ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتجهون إلى الله بقلوبهم قياما وقعودا وعلى جنوبهم، فتتفتح بصائرهم وتشف مداركهم وتتصل بحقيقة الكون التى أودعها الله إياه،

وتدرك غاية وجود الكون وعلة نشأته وقوام فطرته بالإلهام الذى يصل بين القلب البشرى ونواميس هذا الوجود. كما فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

(آل عمران)

ونحن إذا قرأنا القرآن وجدناه فى السورة الواحدة يذكر أمورًا تتعلق بخلق الإنسان وأمورًا تتعلق بالجزاء، و أموراً تتعلق بالحياة اليومية فى مناشطها المتنوعة: اجتماعية واقتصادية وسياسية، وينتقل من موضوع إلى موضوع كما تتبع هذه الموضوعات فى حياة الفرد اليومية، ومن أجل ذلك لا تنقسم سور القرآن على أساس موضوعى، وإنما تتجمع الموضوعات وتتفرق كما يحدث فى حياتنا اليومية، ننتقل من مشكلة سياسية إلى اقتصادية، إلى بحث علمى إلى شىء من طعام أو شراب، فالوحدة هنا وحدة حيوية إذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير فى هذا المقام، وتلك هى أوجه الإعجاز فى القرآن .

فورود الإشارات العلمية منجمة مفرقة فى القرآن هو من أوجه الإعجاز فى القرآن الكريم ولا تعارض بينها رغم تفرقها، فيكفى أنه لو حاول أى إنسان أن يستخدم المنهج نفسه فى الكتابة لجاء كلامه متناقضا غير مقبول تتداخل فيه الأفكار وتختلط وتختلف. بينما نجد أن القرآن الكريم جمع بين دفتيه أحكام العقائد والعبادات والأخلاق والدين، إلى جانب إشارات علمية لجميع موضوعات الكون مما هو محل للعلوم الكونية المختلفة. ومع ذلك فمعانى القرآن واضحة محددة مقبولة للعقل البشرى ينتقل فيها من الفكرة إلى الفكرة ومن المعنى إلى المعنى بإعجاز ومقدرة لا يستطيع القارئ إلا أن يقف مشدوها أمامها، فقائل القرآن هو الله القادر الخالق المبدع. وليس إنسانا ذا قدرات محدودة وإمكانيات ناقصة، والقرآن ليس كتاب علوم ينافس علوم البشر حتى يقسم إلى أبواب فى الكيمياء والفلك والطب، أو فصول فى القصص والتاريخ والجغرافيا وغير ذلك من مناهج البحث والتقسيمات المختلفة التى يتبعها الإنسان فى دراساته وبحوثه. فالقرآن الكريم لا يقارن أو يوازن أو يقاس بمعايير وموازين ومقاييس الإنسان فى تبويبه وتصنيفه وتقسيمه لموضوعات بحوثه ودراساته وعلومه، لأن القرآن ليس كتاباً فى العلم الإنسانى

يضيف قدرا إلى معلومات الإنسان ويدفعه إلى الأمام كما يفعل كبار العلماء بإضافاتهم وكتبهم ومؤلفاتهم. وإنما هو كتاب مفصل على علم هدى ورحمة للعالمين. فالقرآن العظيم يقدم على المائدة الواحدة صنوفا شهية طيبة من كل طعام مفيد لا يحس متذوقه إلا بحلاوة ذوقته وطيب نكهته وطهارة مصدره وحمد عقباه . وهذا وجه آخر من وجوه تيسير القرآن للذكر . كما فى قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ (القمر)

وقد وردت الإشارات العلمية كسائر موضوعات القرآن فى آيات محكمات وأخرى متشابهات. ومع ذلك فهى جميعا فى أساليب بلاغية فصيحة واضحة وهذا من إعجاز القرآن الكريم.

يقول تعالى :﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ﴾ (آل عمران: ٧)

أى أن من حكمة الله تعالى أنه أنزل القرآن وجعل منه آيات محكمات محدودة المعنى بينة المقاصد هى الأصل وإليها المرجع، وأخرى متشابهات يدق معناها على أذهان كثير من الناس وتشتبه على غير الراسخين فى العلم.

ويقول المستشار مدحت حافظ إبراهيم[1]:

ومعانى المتشابهات تفهم على وجه الكمال والتفضيل بعد زمن التنزيل بقرون، وقد يكون فهم سلف الأمة من بعض هذه المتشابهات الإضافية فهما ظاهريا إجماليا. وحكمة الله الحكيم المطلق أرادت أن يحوى كتابه المتشابهات بأنواعها. وبفضل هذه المتشابهات احتوى القرآن الكريم على معانٍ لا تعد ولا تحصى للعقل البشرى ليسلكه الإنسان ويحقق به نعمة الله عليه فى الإدراك والفهم. إن المتشابهات لا تعنى إبهاما كليا بدون معنى كما يظنه بعض الناس. هذا الظن خطأ كبير، المتشابه ليس مهملا ولا كلاما بدون معنى، بل لاحتوائه على معانٍ كثيرة لا يمكن لنا تبين المعنى المراد الذى يبدو مبهما، إنما يبدو مبهما لأن الحقائق المحيطة التى تفيدها المتشابهات لا يستطيع أن يستوعبها فكر البشر. وأن المتشابه فى الحقيقة هو البيان الذى يحتوى على مجموع وجوه البيان من حقيقة ومجاز وصريح وكناية وتمثيل وتحقيق وظاهر وخفى، من أجل ذلك وصفنا المتشابه بأنه المعلوم المجهول.

---

(١) مرجع سابق.

ومعلوم أن الإبهام فى الكلام فى بعض المواقع يعد من أثمن وجوه البلاغة، كما أن كل شخص لا يكون أهلا لكل خطاب، وكذلك لا تستطيع القدرة البشرية على العموم أن تتحمل إبهام وتبليغ كلية العلم المحيط الإلهى. وهكذا نستطيع أن نشبه بعض المتشابهات القرآنية بمصباح بلورى (كريستال) ضوؤه لا يتغير فى الأصل بسبب الزوايا الكثيرة التى على زجاجات البلور تتغير الألوان وتزداد بحسب الزوايا، أى بحسب اختلاف نظر الناس. وهذه الأطياف تتجدد دوما. وهذا فى حد ذاته إعجاز لأن القرآن يخاطب جميع الناس على اختلاف عقولهم وزمانهم.